رباعيات الخيام

بقلم: الدكتور ماهر حسن فهمى

حياة الخيام :

ولد أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام عام ٤٣٣ هـ بمدينة نيسابور • وقد وصفها ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان بأنها مدينة عظيمة فى أرض فارس ذات فضائل جسيمة ، وهى معدن الفضلاء والعلماء • وقال : لم أر فيما تطوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات • وقد عاش الخيام فى عصر الدولة السلجوقية ، وكانت الخلافة العباسية ضئيلة السلطة ، ولم يكن نفوذ الخلفاء يتجاوز أبواب قصورهم ، وليس لهم من الأمر شيء سوى ذكر أسمائهم على المنابر وضربها على النقود • وكان العصر حافلا بالأحداث الدامية، فقد غزت الحملات الصليبية الشرق الاسلامى ، واشتبك المسلمون معهم فى حروب دامت بعد ذلك قرنين ، وجرت فيها الدماء أنهارا ، كما ظهر « الحشاشون » ــ وهم من طوائف الباطنية ــ وأشاعوا الذعر فى العالم الاسلامى كله • وعلى الرغم من ذلك فقد حفل العصر بالروح العلمية ، وتأسيس المدارس بعد أن مرت على المسلمين أربعة قرون لم يكن لديهم فيها مدارس منظمة ذات مناهج ثابتة ، لأن العناية كانت متجهة الى حلقات المساجد على وجه الخصوص • أما فى هذا العصر فقد أنشئت المدرسة البيهقية للبيهقى والسعيدية التى بناها نصر بن سبكتكين ومدرسة الامام أبى حنيفة التى بناها للحنفية أبو سعيد المستوفى والنظامية التى بنيت للشافعية فى بغداد ، والمدارس النظامية التى أسسها نظام الملك فى بغداد ونيسابور وأصفهان وطورس، وتولى التدريس فيها الشيرازى والامام الغزالى والسهر وردى وغيرهم من عباقرة المسلمين • وكانت كتب الفلسفة اليونانية المترجمة شائعة ومؤلفات أرسطو وأفلاطون واقليدس وبطليموس وجالينوس وفيثاغور وأبيقور فى الفلسفة الطبيعية والالهية والرياضية وما يتفرع عنها من المنطق والطب والهندسة والأخلاق والسياسة والهيئة ــ منتشرة بين الناس ، والجدل محتدم حول آراء السوفسطائيين والمشائين والرواقيين وغيرهم من أصحاب المذاهب الفلسفية • وكان علم الكلام قد

وصل الى درجة كبيرة من النضج ، واشتد النزاع العلمى بين الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة وشاعت آراء الباطنية وذاعت رسائل اخوان الصفا ، وتعددت الفرق والطوائف وتعصبت كل فرقة لمذهبها وكثر الفلاسفة وظهر أبو على بن سينا ، وعظم أمر التصوف ، ووضع الامام الغزالى كتبا فى الرد على الفلسفة ، وكثر القائلون بالحلول ووحدة الوجود ، ولكن عددا من المفكرين تفردوا بآرائهم الحرة التى لا تلائم ذوق الجماهير، فاتهموا بالزندقة والابطان .

فى هذا العصر الحافل ، عاش عمر الخيام ، ولا يدل لقبه على صناعته أو صناعة أبيه ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها الحرفية . وسيرة حياته ترتبط بسيرة رجلين من مشهورى ذلك العصر هما نظام الملك والحسن ابن الصباح . وقد أورد نظام الملك فى وصيته التى تركها تذكارا لخلفه من الساسة النبذة الآتية : « كان الامام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان مبجلا مهيبا ، وقد نيف على الثمانين . وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس الى نيسابور لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل. وهنالك حظيت به وحضرت عليه ، فوشجت بيننا أواصر المودة . وكنت أول ما نزلت به وجلست فى حلقته ، لقيت تلميذين فى مثل سنى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الامام الموفق ، وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين فى الفطنة والذكاء ، فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتنها. فكان اذا قام الامام عن الدرس وانفضت الحلقة اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من معارف. وكان الخيام من أهالى نيسابور ، أما الحسن ابن الصباح فكان أبوه متقشفا ، ولكنه كان زنديقا ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صح فى أذهان الناس قاطبة ، أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيبا عزا واقبالا وثروة وجاها . فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعا ، فانه لا بد أن يقع لواحد مناه فماذا يكون حق الاثنين الخائبين على ذلك الفائز الظافر ! قلنا له : اقترح ما تشاء . فقال : نتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت. ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا . ومرت الأعوام على ذلك ، وغدرت خراسان متجولا الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة فى سلطنة السلطان ألب أرسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباى ، فأتيانى يطلبان انجاز وعدى القديم ، واشراكهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء » .

وبر الوزير بقسمه وانجز وعده . والتمس الحسن بن الصباح منصبا فى السلطنة فمنحه السلطان اياه ، ولكن الحسن كان طموحا ، فترك المنصب وانغمس فى غمار الدسائس ، وبعد كثير من التحولات والتقلبات أصبح زعيم الحشاشين واستولى على قلعة الموت جنوبى بحر قزوين ، وأصبح اسمه مبعث الذعر ، حتى لقب « شيخ الجبال » ، وكان من بين ضحايا فرقته نظام الملك نفسه . وأما عمر الخيام فقصد الوزير أيضا غير طامع فى رتبة أو منصب ، وخاطبه قائلا : « لست أبغى لديك أكثر من أن تدعنى أتفيأ طرفا من

ظلال نعمتك الفيحاء ، لأنشر ضياء العلم ، وأدعو لك بدوام العز وطول البقاء » ، فأجابه نظام الملك الى ذلك ، وأجرى عليه رزقا قدره ١٢٠٠ دينار ذهب فى العام ، من خزينة نيسابور •

وتفرغ الخيام فعلا للدراسة فأكب على دراسة الفلسفة اليونانية ، وقد أشار القفطى الى اضطلاعه به والى أن له أراء خاصة فيها حين يقول: « يعلم علم يونان ••• ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية » • وما القواعد اليونانية الا نظريات الفلاسفة اليونانيين فى الكون والحياة والاجتماع والأخلاق ، كما وضح تأثره بفلسفة « أبيقور » ورأيه فى اللذة • وقرأ رسائل اخوان الصفا قراءة الدارس الباحث • وهى احدى وخمسون رسالة احتوت على خلاصة العلوم الشائعة فى عصرهم ، وكان غرضهم من ذلك كما زعموا ، غرضا نزيها ، وهو : « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ». ويكاد يصعب التفريق بين رسائل الخيام ورسائل اخوان الصفا لتقارب الفكر واللهجة والمنهج من حيث التقرير وبسط الحجة • وقتل مؤلفات ابن سينا درسا وأحاط بآرائه ونظرياته فى الفلسفة وعلم الكلام والمنطق مما أودعه كتبه الشهيرة كالقانون والشفاء والنجاة ، حتى لينقل البيهقى عن ختن الخيام خبرا يفيد أنه كان يقرأ كتاب الشفاء يوم وفاته • وقد كان الخيام كما ذكرنا زميلا للحسن بن الصباح ولا شك أن ذلك يدعوه الى دراسة عقائد الباطنية ، ومن الواضح أنه لم يدرس عقائد الباطنية فقط ولكنه تأثر بكثير منها ، باستثناء ما كان من أمر انكار النبوات والوحى •

أما القول بقدم العالم واباحة شرب الخمر والاقبال على اللذات فمحتمل التأويل ، وقد أول الصوفية فعلا أقواله فى هذه الامور « وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم » كما يقول القفطى •

وقد اتهم عمر الخيام بالزندقة ، كما اتهم قبله كثير من ذوى الفضل والأفكار الحرة • ويروى القفطى فى كتابه أخبار الحكماء قوله : « ولما قدح أهل زمانه فى دينه وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحج متاقاة لاتقية » • ورد الخيام ردا يدل على جنان قوى واعتزاز بالنفس فقال : أنا ان كنت سكران بخمرة المجوس فأنا ذاك ، وان كنت كافرا أو مجوسيا أو وثنيا فأنا ذاك ، لكل طائفة ظن فى ، أما أنا فملك نفسى أكون كما أريد ».

على أن زيارته لمكة كانت فرصة استغلها ليكمل سياحاته فى العالم الاسلامى ، ففى طريق عودته مكث ببغداد مدة من الزمن عاد بعدها الى نيسابور ، وكان قبل ذلك قد قام برحلة فى بلاد فارس زار خلالها الرى وبلخ وبخارى • وذكر الشهرزورى أن الخاقان شمس الملك ببخارى كان يعظمه فيجلس الخيام معه على سريره ، وكان السلطان ملكشاه السلجوقى فى خراسان ينزله منزلة الندماء لما عرف عنه من علم وحكمة • وقد كلفه مع جماعة من العلماء باصلاح التقويم الفارسى ، وكانت نتيجة عملهم تقويما أدق من تقويمنا الحالى ، غير أن الاسلام كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الاسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجرى • ومما يدل على ما بلغه الخيام الفلكى من شهرة واسعة تلك القصة التى يرويها عنه نظامى عروضى الذى عرفه فى نيسابور ، قال : « فى شتاء سنة

٥٠٨ هجرية فى مدينة مرو ، أرسل السلطان ملكشاه فى طلب الخيام ، وكلفه أن يختار له خمسة أيام لاينزل فيها مطر ولا ثلج ، وفعل عمر ماكلف به ، ولما أعد السلطان عدته للرحيل، هبط المطر وهبت عواصف ونزل البرد، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : ان المطر سينقطع فى هذه الساعة ، ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة ، وسار السلطان وانقطع المطر فعلا •

وعنى الخيام بالطب ومارسه فطبب ولم يحترفه مهنة تدر عليه ، فقد ذكر الشهرزورى أن السلطان سنجر السلجوقى أصيب وهو صبى بالجدرى فعالجه الخيام • وكن منقطع القرين فى الرياضيات ، وله فضائل أخرى بوأته مكانة رفيعة بين لداته ، منها أنه كان عالما بالفقه واللغة والتواريخ حتى علم القراءات ، وقد روى لنا البيهقى ما دار بينه وبين أبى الحسن بن الغزال امام القراء فى عصره ، حين سأله الغزال عن اختلاف القراء فى آية ، فذكر الخيام وجوه اختلاف القراء وعلل كل واحد وذكر الشواذ وفضل وجها على سائر الوجوه ، فقال الغزال : ما ظننت أن واحدا من القراء يعرف ذلك فضلا عن واحد من الحكماء •

وكان مكينا فى الأدبين العربى والفارسى ونظم الشعر باللغتين ، ولكنه نهج منهجا خاصا فى نظم الشعر، فلم يتغزل بحسناء ولم يمدح ملكا أو أميرا ولم يذم شخصا لعداوة وضغينة، بل انفرد بالتعبير عن مشاعره وحدها. وذكر له الشهرزورى شعرا عربيا يصور فيه موقفه من الناس ومن الدنيا ، يقول فى احدى مقطوعاته :

زجيت دهرا طويلا فى التماس أخ
يرعى ودادى اذا ذو حلة خانا
فكم ألفت وكم آخيت غير أخ
وكم تبدلت بالاخوان اخوانا
وقلت للنفس لما عز مطلبها
بالله لا تألفى ما عشت انسانا

ويقول فى مقطوعة أخرى :

اذا رضيت نفسى بميسور بلغة
يحصلها بالكدّ كفى وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها
فكن يا زمانى موعدى أو مواعدى
اذا كان محصول الحياة منية
فسيان حالا كل ساع وقاعد

وجاء فى ترجمته أن « له ضنة بالتصنيف » ومع ذلك فقد حفظ لنا مترجوه أسماء رسائله وكتبه ، كرسالته فى براهين الجبر والمقابلة وقد ترجم الى الفرنسية عام ١٨٥٧ ، ويدل على تقدم كبير عما وصل اليه هذا العلم على أيدى الخوارزمى أو اليونانيين • ورسالته فى شكل ما أشكل من مصادرات اقليدس ورسالة فى الطبيعيات وأخرى فى الوجود وغيرها فى الكون والتكليف ، وبحث فى الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مكون منهما ، ورسالة فى لوازم الامكنة وقد بحث فيها اختلاف المواسم والفصول فى الاقاليم ثم « الرباعيات » المشهورة •

وقد تخرج على الخيام من الفلاسفة والحكماء جمهور تتلمذوا له ، حفظ لنا المترجمون أسماء جماعة منهم فذكر البيهقى من تلامذته الفيلسوف محمد الابلاقى والحكيم على بن محمد الحجازى القاينى والعلامة عبد الله بن محمد الميانجى والعروضى السمرقندى • وكان الخيام يلقب بالدستور والامام والحكيم والفيلسوف ، وقد لقبه

الزمخشرى بحكيم الدنيا وفيلسوفها ، ولقبه القفطى بعلامة الزمان ، ولقبه العروضى السمرقندى بحجة الحق : فقال « سمعت حجة الحق - يقصد عمر الخيام - يقول : انى اذا مت فان قبرى سيكون فى مكان يهب عليه نسيم الربيع وينثر عليه الزهر والورد ••• ولما جئت نيسابور ، بلغنى أن التراب قد أخفى ذلك العظيم منذ أربع سنوات • ولما كان له علىّ حق التعليم ذهبت الى زيارة قبره فى يوم الجمعة واستصحبت معى رجلا ليدلنى عليه ، فأخذنى الى مقبرة (الحيرة) ، ولما دخلنا التفت الى اليسار ، فوجدت قبره بجانب جدار حديث، وقد تدلت عليه أشجار الكمثرى والخوخ وتساقط عليه الورد حتى أخفاه، فتذكرت قوله لى فى بلخ، فبكيت لأنى لم أجد فى هذا العالم نظيرا له ، وعلمت أن الله أدخله جناته فضلا منه وكرما »• وحكى القفطى أن عمر الخيام كان يتأمل الالهيات من كتاب الشفا لابن سينا ، فلما وصل الى فصل الواحد والكثير ، وضع الكتاب وقام فصلى ، ثم أوصى ، ولم يأكل ولم يشرب • فلما فرغ من صلاة العشاء سجد لله وقال فى سجوده : اللهم انى عرفتك على مبلغ امكانى ، فاغفر لى ، فان معرفتى اياك وسيلتى اليك ، ثم أسلم نفسه الأخير •

ومن الواضح أن عمر الخيام - من خلال رباعياته - كان يرفض أقوال فقهاء الدين فى كثير من القضايا ، وأكبر الظن أن هذه الرباعيات تطبع فى عقل القارىء صورة خاطئة عن حياة الخيام اذا أخذت وحدها ، فالذى لا شك فيه أنها لا تعطى الصورة كاملة عن حياته التى امتدت ما يقرب من خمسة وثمانين عاما ، ومن واجبنا أن نصوره ، لا فى صورة السكير الذى يستلقى مخمورا فى الطرقات ، بل فى صورة العالم المسن العاكف فى هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الحين والحين ، بعد أن استولت عليه فلسفة متشائمة ، حاول أن يجد لنفسه منها سلوى فى الدرس وفى الخمر •

رباعيات الخيام :

كان عمر الخيام يرسل رباعياته فى خلوته - والذين نظموا الرباعيات من الشعراء الفرس كثيرون ابرزهم الخيام - ثم ينشدها لأصحابه فى المجالس فتحفظ وتنتشر • ومن البديهى أنه لم ينظم رباعياته فى دور واحد من أدوار حياته ، ولكنه نظمها فى الحين بعد الحين حسب ما أوحى اليه خاطره وأملى عليه وجدانه • ولو أن هذه الرباعيات وجدت مجموعة حسب وضعها التاريخى لأمكننا أن نفهم تدرج روح الشاعر ، ولكن جميع المخطوطات التى تحوى هذه الرباعيات تضعها فى ترتيب هجائى حسب القافية • وعروض الرباعيات على وزن الدوبيت ، وهو مركب من أربعة مصاريع الأول والثانى والرابع مقفى والثالث مطلق ، وكل رباعية تستقل بمعناها •

وقد اختلف الباحثون وتضاربت آراؤهم فى عدد الرباعيات ، فقد تعاقب عليها النسخ وتناقلتها الألسنة حتى دخلها التغيير ، وأقدم مخطوط لها لا يحوى غير ثمان وخمسين ومائة رباعية ولكننا نجد أن الزمن كلما تباعد ، زاد عدد الرباعيات حتى وصلت فى أحد المخطوطات الى ثمانمائة رباعية ، بعضها لشعراء معروفين • وأقدم نسخة للرباعيات كتبها أحد سكان شيراز سنة ٨٦٥ هـ أى بعد وفاة الخيام بثلاثة قرون ونصف قرن وهى

محفوظة فى مكتبة « بودلين » بأكسفورد • ولكن مجلة العرفان نشرت فى المجلد الخامس والثلاثين صفحة ٨٥٩ خبرا مؤداه أن الأديب أحمد الواساني قد عثر على مخطوط لرباعيات الخيام كتب بعد سبع وثمانين سنة من وفاته ، فان صح الخبر ، كانت هذه النسخة : أقدم النسخ جميعاً ، وقد استطاع أحد المستشرقين أن ينسب كثيرا من الرباعيات فى المخطوطات المتأخرة الى أصحابها مثل عبدالله الأنصارى وأبى سعيد والأنورى والعسجدى وابن سينا والرازى والطوسى •

احتوت رباعيات الخيام آراءه فى الكون كالمادة والزمان والاله والجبر والعدم • ورأى الخيام فى المادة والزمان كرأى الفلاسفة الذىقالوا بقدمهما، وقد أكثر القول بأنه لا بداية ولا نهاية لهذه الدنيا التى جئنا منها ونذهب اليها: « أولئك الذين هرموا والذين لا يزالون أحداثا ، سيذهب كل منهم فردا فردا بعد مجيئه ، ولا يخلد فى هذه الدنيا القديمة أحد ، ذهبوا ويذهبون ويأتى غيرهم ثم يذهبون » (١) •

وقد كان جماعة من علماء المسلمين يكفرون القائل بقدم العالم ويصمونه بالعقيدة الدهرية ، ويستدلون على حدوث العالم بأن الشريعة جاءت بعقيدة التنزيه ، وتقوم على أن الله أزلى ليس له ابتداء ، وأنه أوجد العالم من العدم ، فهو لذلك حادث • على أن القول بقدم المادة لا يناقض وجود الله ، لأن الله واجب بذاته ، وهذه الموجودات علة، وهى ملازمة له كما يلازم المعلول علته ، واذا ثبت أن الأشياء صدرت عنه صدور المعلول عن علته وجب القول بقدم الأشياء • وقد سلك الخيام طريق الفلاسفة اليونانيين فىالفلسفة الالهية ، فهو يعتقد باله هو الخير المحض ، الذى لا يصدر منه الشر ، وبذلك نفى وقوع العذاب والعقاب مدفوعا بعقيدة الجبريين• « تفضلت قائلا: انى سوف أعذبك، وأنا لم أخش قط هذا القول، فان المكان الذى أنت فيه لا يكون فيه عذاب ، وأين المكان الذى لست فيه ؟ » « أنا العبد العاصى فأين رضاك ! أنا المظلم قلبه فأين نورك وصفاؤك؟ ان كنت تهب لنا الفردوس لطاعتنا فذاك بيع فأين لطفك وعطاؤك » .

وقد صرح الخيام فى رباعياته باعتقاده الجبر ، وكان مؤمنا بسيطرته وسلطانه على الكون ، وما فيه من جماعات ، وقال غير مرة انه دخل هذه الدنيا مضطرا كارها، ويخرج منها مرغما كارها ، ولو استشير ما أراد ، ولو خير ما اختار ، فهو لذلك لا يطمئن الى الاختيار • ومذهب الجبر قديم • والجبرية فرقة ينفون الفعل والقدرة على الفعل عن العبد ، ويثبتون القدر ، ويقولون بأن الله تعالى يخلق الفعل ويخلق فى الانسان مقدرة متعلقة بذلك الفعل ، ولا تأثير لتلك المقدرة فى الفعل ، ويقولون ان الله مالك فى خلقه يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، فلو أدخل الناس كلهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا ، بل هو فى كل ذلك عادل ، لأن العدل هو التصرف بما يملكه المتصرف • « أنا أشرب الخمر ، ويشربها كل من هو أهل لها مثلى ، فان شربى لها ليس مستبعدا فى نظر العقل، لأن الله كان يعلم منذ الأزل بأنى سأشربها » • « ماذا أفعل يا الهى وأنت الذى جبلتنى من ماء وطين ، انت كتبت على كل ما يصدر منى من خير وشر فى هذا الوجود فماذا أفعل ؟ » •

١ ــ ترجمة الصراف النثرية للرباعيات

وقد كره الخيام الوجود، وفضل العدم ، ووصف الدنيا بدار المحن والمصائب ، وأكثر من ذمها حتى تجاوز الحد ، واعتقاد الخيام بفلسفة التشاؤم هو الذى زهد فى عينيه الدنيا وبغض اليه الحياة : « ما العقبى اذا بلغ المرء من الدنيا المراد ، وما الغاية اذا قرأ الانسان كتاب أعماله، فلنحسب أنك نلت مرامك مائة عام ، وعشت بعدها مائة أخرى فما النتيجة ؟ » • ليست الدنيا بدار قرار ولا دار اقامة ، أفضل للحكيم أن يكون ثملا ، اسكب ماء الخمر على نار الغم ، قبل أن تذهب الى القبر صفر اليدين » •

والتشاؤم مذهب قديم ظهر فى ديانة البوذيين ويقوم على أن العقل يرى كل شىء فى الدنيا سيئا وأن مقدار الشرور فى الحياة يفوق مقدار الخيرات، وقد شملت هذه العقيدة الحياة كلها ، وكان أساس موضوعها صلة الانسان بالخير والشر وعلاقته باللذة والألم ، على أن هناك فرقا بين المتشائم والمعتقد لفلسفة التشاؤم ، فالخيام لم يكن متشائما كأبى العلاء المعرى الذى انزوى فى عقر داره وسمى نفسه رهين المحبسين ، بل متع نفسه باللذات ولم يقصر فى اقتناص ساعات السرور ، ولكنه كان معتقدا لفلسفة التشاؤم نتيجة فكرة الأدرية • « لم يكن محصول الانسان فى هذه الحياة ذات الفتن الا الألم وعذاب النفس ، فطوبى لمن خرج منها أو لم يجىء اليها » • « وقعنا فى هذه الحياة وقوع الطير فى الفخ مفؤودين من الدهر على الدوام تائهين فى هذه الدوائر التى لا سطح لها ولا باب ، لا جئنا باختيارنا ولا ذهبنا بارادتنا » • « اشرب الخمر الصافية مرتين كل يوم ، فان العمر يومان ولا يعود اليك مرة أخرى ، وأنت تعلم أن الكون آيل الى الخراب »•

ولا أدرية الخيام نابعة من اعترافه بعجز العقل البشرى عن ادراك المجردات ، وفهم جوهرها وخواصها ، وجهله الخليقة والحياة والموت • « أولئك الذين أحاطوا بالفضل والأدب وأصبحوا شموع المجالس والأصحاب ، لم يهتدوا الى الطريق فى هذا الليل الدامس ، وانما فاهوا بشىء من الخرافات وناموا » • « لو عرف القلب سر الحياة كما هى لعرف أيضا فى الموت الأسرار الالهية ، أنت لا تعلم شيئا ومعك نفسك ، فماذا تعلم غدا اذا تجردت منها ؟ » • « قوم يفكرون فى المذهب والدين ، وجماعة حيارى بين الشك وبين اليقين ، واذا هم بهاتف يهتف بهم من عالم الغيب: أيها الغافلون ، الطريق لا هذا ولا ذاك »• وكثيرا ما كان يهتف : يا حبذا لو كان للراحة موطن •

والواقع أن هناك نسبا متينا وقرابة فكرية بين رباعيات الخيام وشعر أبى العلاء ، ويرجع ذلك الى ظروف التشابه بينهما ، فكلاهما نشأ فى عصر حافل بالعلوم والآراء الفلسفية، حافل بنيران الفتن التى لا تهدأ • وكلاهما كان زاهدا ، مستخفا بعقائد الناس ، جرىء الرأى ، اتهم بالزندقة من أجل ذلك • وكلاهما بعد ذلك كان معتقدا مذهب الجبر دائنا به • فاذا قال أبو العلاء فى اللزوميات:

جئنا على كره ونرحل رغما
ولعلنا ما بين ذلك نجبر

قال الخيام : « جاء بى مجبرا الى الوجود ، ولم أزدد غير الحيرة فى هذه الحياة ، ذهبنا مكرهين ، ولم نعلم المقصود بمجيئنا وبقائنا وذهابنا » •

واذا ران الشك على أبى العلاء فى أمر البعث فقال :

أما الجسوم فللتراب مآلها
وعييت بالأرواح أنى تسلك

قال الخيام : « صاح قبل أن تهجم عليك الغموم ، مرهم يأتوك بالخمر الوردية ، أيها الغافل لست ذهبا فاذا واروك التراب أخرجوك مرة أخرى » •

وكان أبو العلاء يرى التقية ومداراة الناس ، ويحتاط فى اظهار آرائه ، وحذا الخيام حذوه ، وكأنما اتعظ الشيخان بالفجائع التى نزلت بزملائهم فى الرأى الذين جبلوا على الصراحة • يقول أبو العلاء :

فاصمت فان كلام المرء يلهكه
وان نطقت فافصاح وايجاز

ويقول الخيام : « لا أستطيع أن أبوح بسرى لكل طيب وخبيث ، أنا أوجز الكلام ولا أستطيع أن أطيله » • وقد تزاحمت أفكار اليأس والمرارة فى رأسيهما ، حتى شكا فى قيمة الحياة ومعنى الوجود • فيقول أبد العلاء :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ويقول الخيام : « لو كان مجيئى باختيارى ما جئت ولو كانت خلقتى بيدى ما رغبت » •

واذا كان كلاهما قد رأى الحياة خطبا ، واتفقا على تشخيص الداء ، فقد اختلفا فى أسلوب العلاج• كان عمر الخيام يرى أنالوسيلة الوحيدة للنجاة من آلام الحياة هى الخمر ، وكان المعرى يرى أن الموت هو الوسيلة الوحيدة ، وقد وصف الخيام الخمر بما وصف به أبو العلاء الموت • فاذا قال أبو العلاء :

والعيش سقم للفتى منصب
والموت يأتى بشفاء السقام

قال الخيام : « بين مجىء الربيع وذهابه تنطوى أوراق وجودنا • اشرب الخمر ولا تتألم ، فقد قال الحكيم ، ان آلام الحياة سم وترياقها الخمر »•

واذا احتفل أبو العلاء بجسم الانسان بعد موته ورغب فى تكريمه قائلا :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الآباء والأجداد

قال الخيام : « رأيت خزافا فى السوق يشكل قطعة من الطين ، وكان لسان حالها يقول : « لقد كنت يا هذا مثلك فعاملنى بالحسنى » •

وقد اختلفا فى أسلوب العلاج كما رأينا ، الخيام يتشوق الى الخمر والمعرى يتشوق الى الموت ، فمن الطبيعى أيضا ألا يتزوج أبو العلاء ويرى الزواج جناية ، ومن الطبيعى أيضا أن يتزوج الخيام وأن ينجب وان لم يذكر التاريخ له سوى ابنة واحدة •

القيمة الأدبية والفكرية للرباعيات :

ما قيمة الرباعيات اذن فى نظر الفكر والفن ؟ الواقع أننا نتمثل من قراءتها الرجل الذى شق على نفسه فى تحصيل العلوم الطبيعية والفلسفية ، وأراد أن يواجه المسائل الكونية على هديها فخاب أمله • كان يرى الحياة لذيذة والدنيا جميلة ولكنها مؤقتة وزائلة زوال الظليترصدها الموت والانطفاء الأبدى ويغتالها العدم • والقول بأن الحياة وشيكة الزوال دانية الأجل وأنها باطل أباطيل وقبض الريح قول لا اختلاف عليه ، وان تفاوت الناس فى الشعور به قوة وضعفا • وقد يختلف الناس فى كل شىء الا أن الموت حق ، فتلك أولىالحقائق القائمة فى بدائه العقول لوقوع المشاهدة عليها منذ

أول الخلق ، ولكن عصر الخيام المليء بالفتن ، كان يدفعه دفعا الى تمثل الموت كل حين، ويرد الخلاف بين الناس فى عمق الاحساس بهذه الحقيقة ، على ان اصحاب النفوس الشاعرة فريقان ، يتصرف كل منهما على مقتضى غرائزه وطبيعة مزاجه وتركيب بنيته وملابسات حاله• فهناك فريق يرفض الدنيا الباطلة الزائلة ويعرض عن زخرفها وزينتها، ويزهد فى متاعها ولذتها ، وزعيم هذا الفريق أبو العلاء • والفريق الآخر يرى الافادة من الموجود ، ومبادرة المتعة قبل أن يأتى الموت ، وفى طليعة هذا الفريق الأبيقورى عمر الخيام • كان يرى أن أساس الكون ومحوره هو الاضطرار والقدر الأزلى ، وزاده علمه بصيرة بفساد دنياه ، فهون على نفسه ، ودعا الناس الى التهوين على نفوسهم ، وأخذ الحياة كما هى ، وان بقيت نفسه حائرة تبحث عن الحقيقة ولا تصل اليها صاحية ومنتشية ، ومن هنا نلمس خفقات القلب بين ومضات الفكر وخلجات العاطفة بين صيحات العقل •

ان ميزة الرباعيات الواضحة أنها تعبر عن شخصية الخيام الوجودية بكل ما يزينها ويشينها ، بينما نرى شخصيات شعراء الفرس من المتصوفة وقد اختفت فى ثنايا قوافيهم واضمحلت فى طيات كناياتهم وتضاعيف رموزهم • والرباعية تكشف المعنى وتركزه فى حيز صغير ، تبدأ بمقدمة وتنتهى الى نتيجة ، فهى متأثرة بعقلية الخيام الرياضية ، ولكنها على الرغم من ذلك مفعمة بالحيرة الحزينة أو بالحزن الحائر ، فواحة بزفرات الحنين الى المجهول، نابضة بأحاسيس الاغتراب ، تجمع بين فكر الفيلسوف وعواطف الشاعر فى قالب ثرى النغم ، ولذلك فترجمتها نثرا تتلفها دون ريب ، لأنه لا يبقى منها سوى الفكر المجرد ، ولم يكن هم الخيام فى رباعياته التعبير الفلسفى أو البحث العقلى ، ولكنه حول القضية الفكرية العامة ، الى تجربة ذاتية ، غنية بالايحاءات ، ومن هنا كانت الرباعيات ذات مذاق خاص ، وكان الخيام شاعر الحكماء وحكيم الشعراء ، ومن هنا أيضا تجلى الاهتمام الكبير بها فى الغرب وفى الشرق • وأول من عرف الخيام من الأوربيين العلامة « توماس هايد » أستاذ اللغتين العربية والعبرية بجامعة أكسفورد ، وقد بحث شعر الخيام فى مؤلف له عام ١٧٠٠ ، وفى سنة ١٨١٨ ترجم المستشرق النمساوى « هـ• برجستال » خمسا وعشرين رباعية فى كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » • ثم وفق «كويل» استاذ العبرية والسنكريتية بكمبردج الى العثور على أقدم نسخة خطية للرباعيات فنشر شيئا عنها وعن حياة عمر الخيام فى مجلة «كلكتا» سنة ١٨٥٨ ثم درسها بعد ذلك الشاعر «فتزجرالد» وأخرج أول ترجمة لها عام ١٨٥٩ ، وبعد سنوات قليلة أخرج المسيو « نيقولا » ترجمة فرنسية للرباعيات عن نسخة طهران ، وفى رأيه أن الخيام شاعر صوفى مشغول بالعشق الالهى سكران بالخمرة المقدسة ، شبيه بحافظ الشيرازى• وشجع ذلك «فيتزجرالد» فأصدر طبعة ثانية من الرباعيات أكثر دقة من الأولى ، وهنا بدأ الاهتمام العام بالرباعيات وقيمتها الفكرية والفنية • وظل اسم الرباعيات ينتشر بعد ذلك وأقبل عليها المترجمون فى أشهر اللغات وتأسس نادٍ باسم الخيام فى لندن عام ١٨٩٢ • وتوفر الكثيرون على درس الرباعيات ومن أشهر هؤلاء المستشرق الروسى زوكفسكى الذى وجد اثنتين وثمانين رباعية مدسوسة على الخيام ، وقد رد نسبتها الى تسعة وثلاثين شاعرا من

شعراء الفرس • وانقطع المستشرق الدنمركى كرستنس الى دراسة نسخ المخطوطات الخاصة بالرباعيات ، وتمكن من جمع مائة وعشرين رباعية قطع بصحة نسبتها الى الخيام وذلك فى كتابه « مبحث فى رباعيات عمر الخيام ، طبع هايدبرج سنة ١٩٠٤ » •

أما فى العربية ، فأول من نقلها نظما الشاعر وديع البستانى ، فقد ترجم أربعين رباعية من الانجليزية عن فتزجرالد وله فضل لفت أنظار العرب الى رباعيات الخيام ، وان جاءت بعيدة عن الأصل ، لأنها ترجمة عن ترجمة • وأعقبه محمد السباعى الذى ترجم مائة رباعية شعرا ، عن الانجليزية أيضا ، وعليها مسحة من شاعرية الخيام ، ولكنه صاغها فى خماسيات • وترجمها بعد ذلك الشاعر العراقى محمد الهاشمى ، ولم يكن يجيد الفارسية ولا الانجليزية ، فأعدها له احمد حامد الصراف نثرا عن الفارسية وصاغها هو شعرا وترجمها الزهاوى عن الأصل الفارسى نثرا ونظما ولكنه تصرف فى الترجمة وفى النظم وحافظ على روح الرباعيات لا على نصها، وعن ترجمة الزهاوى النثرية نظمها أحمد زكى أبو شادى شعرا ونشرها بمجلة المقتطف سنة ١٩٣١ ، ولعل أدق التراجم ترجمة الشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى وترجمة الشاعر المصرى أحمد رامى • ولا شك أن هنك قرابة بين روح الشاعرين وروح عمر الخيام ، أما الصافى فلم يلتزم نظام الرباعيةالفارسية فى ترتيب القوافى ، ومن هنا نحس أن النغم مختلف وأن الموسيقى التصويرية ليست دقيقة ، ولكننا نحس فى نفس الوقت أن الفكرة منقولة بدقة وأن الروح هى نفسها ، وأما ترجمة أحمد رامى عن الفارسية أيضا ، فأدق كثيرا فى الانغام التى نقلت موسيقى الخيام نقلا أمينا ، وتفصح عن روح الخيام فى شفافية عجيبة ، ولكنه كان يضحى أحيانا بالكلمة من أجل المعنى العام للرباعية •

وقد أثرت الرباعيات فى كثيرين من شعرائنا المعاصرين ، لعل من أشهرهم « جميل صدقى الزهاوى » الشاعر العراقى ، و «ايليا أبو ماضى» الشاعر المهجرى • وقد حاول الزهاوى أن يكتب مجموعة من الرباعيات ، ولكن الزهاوى لم يكن عميق الثقافة عمق الخيام ، فغلبت على رباعياته سطحيته الفكرية ، وتقريرية النظم التى غلبت على أكثر شعره ، وكانت أشبه بالصدى البعيد الذى يحاكى الصوت فى الوادى الفسيح ، فيجىء ضعيفا باهتا ، وأما ايليا أبو ماضى فمطولة «الطلاسم» مشهورة ، ردد فيها كثيرا من معانى الخيام ، ويبلغ مجموع هذه المطولة واحدا وسبعين مقطعا يتألف كل منها من أربعة أبيات ، تنتهى بلا أدرية « لست أدرى » • وقد حاول أبو ماضى أن يغطى صورته بتجاهل العارف وأن يشيع روحا من التفاؤل تمرق خلال المقطوعات بين الحين والحين ، ولكن المطولة رغم ذلك جاءت أشبه بالصورة التى تحاكى الأصل ، وان كانت عبقرية أبى ماضى الشعرية قد استطاعت أن تجعل الصورة فى دقة الاصل •

نماذج من الرباعيات :

سمعت صوت هاتفا فى السحر   نادى من الحان غفاة البشر
هبوا املأوا كأس الطلى قبل أن   تفعم كأس العمر كف القدر
أحس فى نفسى دبيب الفناء   ولم أصب فى العيش الا الشقاء
يا حسرتا ان حان حينى ولم   يتم لفكرى حل لغز القضاء
أفق وصب الخمر أنعم بها   واكشف خفايا النفس من حجبها
وروّ أوصالى بها قبلما   يصاغ دن الخمر من تربها
غد بظهر الغيب واليوم لى   وكم يخيب الظن فى المقبل
ولست بالغافل حتى أرى   جمال دنياى ولا أجتلى
هات اسقنيها أيهذا النديم   أخضب من الوجه اصفرار الهموم
وان أمت فاجعل غسولى الطلى   وقد نعشى من فروع الكروم
لبست ثوب العيش لم أستشر   وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم   أدرك لماذا جئت ، أين المفر ؟
وكم توالى الليل بعد النهار   وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهوينا ان هذا الثرى   من أعين ساحرة الاحورار
يا نفس ما هذا الأسى والكدر   قد وقع الاثم وضاع الحذر
هل ذاق حلو العفو الا الذى   أذنب والله عفا واغتفر ؟
زخارف الدنيا أساس الألم   وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خلى البال من أمرها   فكل ما فيها شقاء وهم
أطال أهل الأنفس الباصرة   تفكيرهم فى ذاتك القاهرة
ولم تزل يا رب أفهامهم   حيرى كهذى الأنجم الحائره
رأيت خزافا رحاه تدور   يجد فى صوغ دنان الخمور
كأنه يخلط فى طينها   جمجمة الشاه بساق الفقير
هات اسقنى كأس الطلى السلسل   وغنى لحنا مع البلبل
فانما الابريق فى صبه   يحكى خرير الماء فى الجدول
تملك الناس الهوى والغرور   وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تُزال الحجب بانت لهم   زخارف الدنيا وعقبى الأمور
خلقتنى يا رب ماء وطين   وضعتنى ما شئت عزا وهون

١ ـ ترجمة أحمد رامى

فما احتيالى والذى قد جرى   كتبته يا رب فوق الجبين

اذا سقانى الموت كأس الحمام   وضمكم بعدى مجال المدام

فأفردوا لى موضعا واشربوا   فى ذكر من أضحى رهين الرجام

يا مدعى الزهد أنا أكرم   منك وعقلى ثملا أحكم

تستنزف الحلق وما أستقى   الا دم الكرم فمن آثم ؟

علام تشقى فى سبيل الألم   ما دمت تدرى أنك ابن العدم

الدهر لا تجرى مقاديره   بأمرنا ، فرض بما قد حكم

ان الألى ذاقوا حياة الرغد   وأنجز الدهر لهم ما وعد

قد عصف الموت بهم فانطووا   واحتضنوا تحت تراب الأبد

عبدك عص أين منك الرضاء   وقلبه داج فأين الضياء ؟

ان كانت الجنة مقصورة   على المطيعين فأين العطاء ؟

د . ماهر حسن فهمى